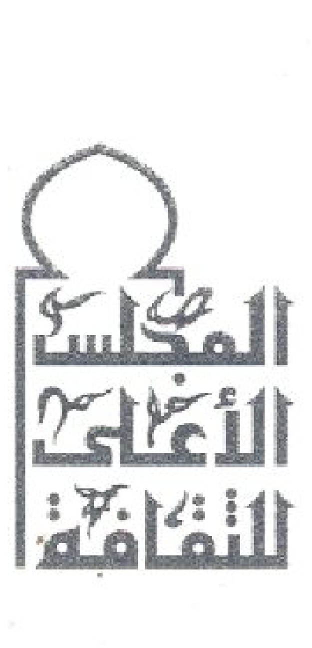
جمر الوقت

شعر

فتحي فرغلي



جمر الوقت

فتحى فرغلى

المجلس الأعلى للثقافة

اسم الكتاب : جمر الوقت (شعر)

اسم المؤلف : فتحى فرغلى

الطبعـــة : الأولى - القاهرة ٢٠٠٢م .

شارع الجبلاية بالأوبرا - الجزيرة - القاهرة ت ٧٣٥٢٣٩٦ فاكس ٧٣٥٨٠٨٤

El Gabalaya St. Opera House, El Gezira, Cairo

Tel : 7352396 **Fax** : 7358084 **E. Mail** : asfour @ onebox. com

المجلس الأعلى للثقافة

جمر الوقت

شعر

فتحى فرغلى



٢٠٠٢

إهداء

إلى الطبيب الفقيه اللغوى الناقد الزاهد ، المصرى العربى الذى أورثنى أَنَفَةَ الانتماء ودفعنى للبحث عنها فى لغة الأرض وما يلغو به الناس .. إلى د. فرغلى : أبى .

مقدمة

هذى كلمات مترعة بالشوق (*) وبالخوف (**)
فالجرح النازف من زمنٍ
مازال به نبضٌ
من فوق ومن تحت الحرف
قد أثخن هذا العربىُّ قوافيه
إلى حدِّ النزف
حمّلها قافلةً مازالت تضرب فى التيه
ويعزِّيه :
أن الناس جميعًا تقرأ : ما تحت
وما فوق
وما بين
وما خلفْ

(*) (قال الشوقُ : أنا ظمؤك وأنا مبلغ ريِّكَ ، قلتُ : صدقت ، فإنك للعشاق شَراب "مع أنك فى الأصل سراب" بالوهم يروِّيهمْ قال : فمن هذا الظمأ شرابكَ ، قلت : نعم ، انى أسْتسقيْتُكَ وظمئتُ ، ونلتُ شرابك وظمئتُ ، وما زلتَ على بابك أرجو السُّقْيا) .

(**) (قال الخوف : ألا تصغى لى ؟ ! قلت له : كلا ، إنى جُزْتُ مفاوزَ – من قبلُ – كثيراتٍ – كل منها يُضْمُر للمجتاز ردئ أكثر مما يبدى ، لكنى ما استوقفنى فى أىّ منها ما تُضمِرُ أو تُبدى ، ولقد أقدمتُ ، وإن كان كإقدام الغافل ، يمضى لا يدرى بصنوف الموت المتربّص بين اللفتةِ واللفتةِ إلا أنى أقدمت إلى أن صرتُ إلى يومى هذا .

قال الخوفُ : أنا غدك الآتى ، قلت له أبدا ما كان ولا سيكونُ ، لقد واجهتك من قبلُ كثيرًا . وعرفتك ، ولذلك لا أخشاكَ ، فيما كنت تواجهنا فى كامل لأمَتك ، ونحن العزّل نُبصركَ وأنت تحط بكَلْكلك على قطع الليل ، وما ساورنى فى أىٍ منها هاجسك إلى أن صرتُ إلى يومى هذا .

قال الخوف : أنا الخوفُ من الآن أُسَمّى نفسى أسماءً أخرى . وأجيئك مرتديا أردية أخرى ، ولئن جئتُ لأذهلتك حتى لا تدرى إقبالك من إدبارك ، قال مقالته ومضى ، أدبر أو أقبل لا أدرى ، لكنى حين صحوتُ ، صحوتُ وقد صرتُ إلى حالٍ مازالت هى حالى فى يومى هذا) .

انتظار

فى وقتٍ ما

سوف تكونين هناك

عندئذ نترك كل التفصيلات بلا ندمٍ

إذ أن القلب سيهجر كل الأشياء

(المشغول بها طول الوقت بلا معنى)

فلسوف تغيِّرُ كل الأشياء معانيها

فى وقت ما

مازال يراوغنا

رحيل

١٢

(١)

من أَلِفِ الصبح

إلى ياء الليلِ

تجولتَ طويلا

وسط خواء زحام الطرقاتِ

وعدتَ تنوء بحلمك :

ما لقيتْ روحك بُغْيتها

فى هذى الساحاتِ

وما كانت خادعةً كل الأعين

أو كانت زائفةً كل الألوان

وكل الأصواتِ

ولكنك لم تُسلم قلبك أبدا

وتحصَّنْتَ وراء قناعِ الكلماتِ

ظللتَ تحاذرُ،

لا تأمَنُهمْ إلا من خلف مسافاتٍ

عَلَّ نصالهمو تتكسَّر فيها دونكَ .

ها أنت بقيت صحيحًا
لكن منكسر الروح
تسافر فى كل صباحٍ
خلف حروفٍ
تهجر فى الليل مواقعها ،
من ألف الصبح إلى ياء الليل
تسافرُ
لا زاد ولا صحب ولا مأوى
لا مأوى لك إلا وسط متاهات رحيلك
فارحلْ !

(٢)

رحلتُ ،
إلى أن نزلتُ عراءً من الليلِ
(ما بين رهبة مَقْدَمِهِ وتجلِّيهِ
ألفُ انتظارٍ)

عَثُرْتُ به ذات حزنٍ

فألفيتُ نفسى وقد صرت فى قلبهِ

قلت : هذا الذى كنت أخشى ،

دنَتْ ساعتى فيك يا ليلتى القاحله !

لقد كنت أرجو من الليل خيرًا

ظننتُ بأن سوف يُوسِعُ لى الصدرَ

يفتح لى ألف بابٍ

فتعبرها خيلى الصاهلة .

ولكنه كان يُطّبِقُ ،

تعتصر القلبَ وطأتُهُ

ثم يُبْهِمُ

يغُلق فى وجه روحى الدروبَ

يتوّهنى فى فيافيهِ

هذى التى تترامى حوالىَّ

لست – إلى الآن – أعرفُ

كيف ستقطعها خطوتى المثقلَهْ !

(٣)

منذ كانوا ، وكنتُ

ونفس الشعور يراودنى :

أن كل الجهات التى الروح تهفو إليها

ستخذلنى ،

ولقد فَعَلَتْ !

مذ تكسَّرَ لوْحُ خرافتها

بين أيدى الصبىِّ الذى كان

- فى وَلَهٍ -

يتهجّى الحروفَ

ويأمل أن يتملك كل مفاتيح أسرارها

ألخرافَةُ فى اللوحِ

أم فى الطباشير والأردوازِ

أم أنَّ الخرافة هذا الوَلَهْ ؟ !

(٤)

خطوةً .. خطوةً

أخذتنى خطاى بعيدًا

توغّلتْ حتى تَضَعْضَعْتُ

ثم انتهى بى مسيرى إلى ليلةٍ

نَقِبَتْ فى مسالكها الراحلة .

أحاول أن أستبين مكانى

فلا أتبين إلا اختلافى

أرى أننى قد نأيْتُ

فأدرك كم شردت خطوتى

عن خطى القافلة .

أين راح الحداء الذى كان يجمعنا

لم يعد أحد يستسيغ صداهُ

الحداةُ قضوا

غير أنى كَمَنْ مسَّهُ السحرُ

يمشى إلى حتفه

ليس يدرك أن خطاه

هى القاتلة .

(٥)

.. ومازلتُ أرحلُ

أكتب مَوْتِي

أدوّنُ كل تفاصيل هذى القفار

التى تسكن الروح

أولها فى دمائى

وآخرها فى دمائى

وهذى المزاود لاشىء فيها

سوى أحرفى الذاهلة .

أحـزان الذاكـرة

١ - يونيو

قاجأنى حلم ذات صباحٍ
أن النيل انتحب على كتفى
فصحوت وقد بللنى الدم .

٢ - أكتوبر

ذاك الأكتوبرُ
كان يوافق رمضانْ
أما نحنُ ،
فما كنا نأخذ فى الحسبان
أن التقويم الهجرى
سيختلف عن التقويم الميلادى
إلى أن أصبحنا فى ذات زمان
فإذا التقويم العربى بأجمعه
يخرج من حرِّ الدم وفوار الحلم
إلى برد النسيان
هوذا أكتوبرنا الآن .
كلماتٌ حفروها فى نصُبٍ تذكارىٍّ
وضعوه على مدخل برج الإسكان
كتبوها فى لافتة المشروع الاستثمارىِّ
وفى رسم يتوسط كلمات التأييد
على صفحات الإعلان .

٣ - حزن مقيم

وطنٌ ينتضى حلمه

طالما أشعل الماء والرمل

أشعلنى

ثم أخمدنى

إننى الآن أُتهم فيه وأُنجدُ

لكننى لست ألقى لذاكرتى أثرا

هو ذا وطنى :

قد تنكر للحلم

ثم مضى يبتنى غربتى

حجرًا

حجرا .

عندما الموت يأتى أكون تعودته

كان الموت قديما

يقترن بحربٍ

بفجاءة زلزالٍ

بركانٍ

أو حتى بالعاصفة

أو الرعد

الآن خفيًا يتسلل

مقرونا بالأخبار العادية

(فى الصحف القومية والحزبية)

وسط أغانى المذياع اليومية

(كل أغانيهم مفرغةٌ عمدًا

مما نعرفه من حرِّ الوجد)

موتٌ يتمسكن

حتى يتمكن

يسكننا وهو غريبٌ عنا

نسكنه ، مع أنّا

لانعرف فيه هوى مصر

ولا ريح الشام

ولانجد

موتٌ فى أوله يقطر

بعدئذ يمطر

ثم إذا هو يكثر

حتى يتدفق أمواجا

أفواجا لايحصيها العد

* * *

هكذا عندما الموت يأتى

أكون تعودته

شروط الواقع

(١)

سألمّ شتات الروح المسحورة

من تحت ركام أمانيها

فقريبا يتراءى فجرٌ

أتوقع – فى هذى المرّة

أن يأتى بالناس حَفِيًا

ويجىء كما فى الحلم وفى الصحو تمنيناهُ

طهورا ونقيًا

فإذا مابزغ ، انطلق تواثب

حرًا وفَتِيًا

هذا هو – حقًا – إحساسى

لا أدرى مصدره

أو كيف تملكنى

لكنْ ..

هذا إحساسى من زمنٍ

إحساس ظل يلازمنى

وحلمت به طيلة سنوات العمر مليا

(وياما تمنّيْت – فى غمرة الحلم . أن الزمان يجود ، فتسنح لى

فُرصةٌ ، فُرْجَةٌ فى ثـقوب انتظارى الطويل الثقيل ، تجئُ المراكب منها مُحَمَّلَةً برؤاى ، على متنها أخـتلى بهواى ، فتُشرقُ ذاكرتى فى سمـائى المهيـضة ، من فُرْجَـةٍ فى ثقوب انتظارى سـأُبْحِرُ ، منطلقا فى فضاءٍ بلا أفق فـــيه تَتْرَى المشاهد).

المشهد يعقبه المشهدُ

لكن لا شىءَ يتغير

أتكون الروح قد احتشدت عبثًا؟

خَبِّرْنى :

بالله عليك تخُبِّرْنى

ما جدوى الفجر إذن

مادامت أشياؤك لاتترك سيرتها

بل هذى هى مازالت

بين الخيط الأسود والخيط الأبيض

تتسلَّلُ لابسةً أكفان العادة :

(لاتزال الحـراب التى تـتكاثر فى الصـــحـو يُبْـرِدُهـا الليلُ ، ثم الحراب التى تتكاثر فى الليل يبردها الصحوُ ، لو ألف عمر أمامك لن تستـريح . وهذى فلول الأناشيـد لمَّا تزل تتناسل أبواقـها فى الفصــول ، يورِّثها الناس للناسِ ، عبـر السلالات ، هذى التى لمْ تزل تتكاثر وهى تكابد سرَّ الأفوال .

* * *

كأن الذى فى الكراريس من فرح بالتضاريس ، ليس يؤجل موت الخريطة ، من ذا الذى يتجاسر - بعُد - فيعلن عن جُثـةِ نتغافل عنها لتحيا ، ونحيا نساكنها فى القرى والشوارع ؟!

* * *

ثمَّ تعالَ ، وقُلْ لى :
حتام نظل نغالب هذى الحمَّى
وتغالبنا طول الوقتْ
نتكتَّم شهوتنا أشياءَ
وكراهتنا أشياءَ
لكن لانجرؤ أبدا
أن نَهْتِك طقس الصمت ؛

(٢)

سأحاول أن أخضع لشروط الواقع
أقنع نفسى
أنّ هذى الضوضاء الزائدة

هى الأعذب من كل الموسيقا
أن هذي الألوان الفجّة
أجمل من كل الألوان وأرقى
أنّ هذى الضجة فى الخطب الرسمية والإعلانات
(خصوصا أن التاريخ يسجلها دون سواها)
هى أصدق من كل الكلمات وأبقى
أما قلبى :
فله أن يتخير ماشاء من الحيرةِ
– فيما قد بقي من الوقت المسموح به
حتى يأتيه غدٌ
أصبح يتساوى عندى
أن يأتى أو لا يأتى

أبى النيل .. عمتى النخلة

فى أول هذا الظمأِ

رأيتُ النيلَ (: أبى)

ففرحتُ

وقلتُ أمِنْتُ

وإن لم تَروَ شرايينى

تكفينى آيات الماء

سأحفظها فى القلبِ

وأتلوها فى وقت الضيق

إلى أن تُفْرَجَ

إن كان الفرج سيأتينى

* * *

أحلم بالأرض الموعودة

مع أنى فى وقتٍ

ما عادت فيه الناس تُفرِّق

بين الأرض وبين الوعد

وبين الوعد وبين الأرض

أرانى مشتعلا شوقا

لكنى لا أقدر أن أكتب هذا الشوق
لأنى لو أفْصَحْتُ أضَعْتُ
سأغمض حتى لايفهمنى إلا العشاقُ
فوحدهم العارفة قلوبهمو أنى سلطان خفاياهم
وحدهمُ الغاوون سيّتبعون رموزى
ولكم قلبى
يا من تتحلّون بخوفى
وبشوقى
ويقينى

* * *

أقعد للأحرفِ
وهى تراوغنى وسط صحارى للوحشة
والوحشة سِفْرٌ من أسفار النار
متى ألقى فيها من سوف يعلمنى
شيئًا من لغة الأنهار
لوأنِّى ألقاه لصرت له عبدًا
علِّى أستنقذ من بين أياديهم وطنًا

أتكتمه

وأجاهد طيلة عمرى فى كتمان الأسرار

لكيلا يفلت منى ما يفسد هذا العشق

* * *

(لقد أفسد العشق حالكَ ، إن كنت تُنكر فانظر مآلكَ ، ها أنت صرْت إلى حيرةٍ ، هى تُفضى إلى غربةٍ ستفوق احتمالك ، يامن قعدت لهذى الحروف تُحمِّلُها الحلم ، ثم تسائلها عنه ، وهى التي لاتجيب ، وتُعْرِضُ عن نبضِ جُرحك ، عن فيض خوفك ، عن حر شوقك ، ثم تردُّ عليك سؤالك ، هل كتم النيلٍ عنك الذى باح للأولين به ، ويُمضك ذلك أم هو يأخذهم لمصبٍّ يخالف نبعك ، أنت الذى كنت من أجله ستروود المهالكَ ، كيف - إذن - ستُصَرِّف روحك إن ناح بالقرب منك الحمام ، وماذا تقولُ وأنت ترى أنهم ينكرون مقالك ، يمحونه من جميع الصحائف إلا إذا كنت تعلن فيه امتثالكَ، ماذا ستفعلُ إن طال هذا عيالك ، قد كتم النيل ما باح للأولين وللآخرين به ، وكأنك ما عدت منه ، وما كان ذنب سوى أن رحلت قليلاً ، وما كنت في ذا بمن يتلبَّسه البعد ، حتى لتفقد فيه مثالكَ ، أو كنت فى البعد منشغلاً تستطيب انشغالكَ ، يا نيل إنى رحلت وما كنت أهجُر ، كنت أظن بأنى سأبدل ماءً بماءٍ ، وماكنت أعرف - يا نيل عفوك - أنى سأبدل روحى).

* * *

قالوا : هذا العربى القادم كى يرد النيل

يخبِّئُ فى باطنه صحراءً لايرويه النيلُ

ولكن يمضى ترويه بلاغته

كيف تأتَّى لك هذا المنطق

مع أنك آتٍ من نسل الصمت الأعظم

قلت : لقد أنطقنى ما أرَّقنى

لكنى مازال يؤرقنى

أنى كنت السامعَ ، مازلتُ

ولم يؤذن لى - بعدُ - بأن أتحدث عن ظَمَئى

* * *

ظمأً يترصدنى

أحيانا يقفونى ، أحيانا يتقدمنى

ظمأً يتعقبنى

وقطيرات منكِ تبلل هذا الحلقَ

المتشقق من لفح الصرخات المكتومة

فانهمرى وانهمرى

لولاك لما أقدمتْ

فما كنتُ بمجنون لايبصر عاقبةً

حتى أتجرأ وأعاند هذى الوحشة وحدى

وأنا لا رمحٌ بيمينى

لاترسٌ قدامى

لاحصنٌ من خلفى يسند ظهرى

لاشئٌ فى الجَعْبةِ

بيضاءٌ أو راقى

إلا من حلمٍ بقدومكِ

فانهمرى وانهمرى

ليس سوى مائك ما يجمعنا

ويؤلف بين قلوب القوم

لقد كان إذا فاض علينا أعرسْنا

وإذا ما غاض صبرنا وتآزرنا

ما كنت أصدّقُ أن يأتى يومٌ

يغلبنى فيه الظمأ على أمرى

ياما قد حاول – من قبل – كثيرا

سرًا أو جهرا

لكن لم يفلح فى ذلك أبدا
فأنا من نسل النيل
تبارك مجراى ومرساى
وليس لظمأٍ أن يغلبنى
حتى لاحت لى نُذُرٌ
جعلتنى أدرك أن اليوم آتى
حين رأيتهمو ينسلون من الحلم فرادى
خوفا من ظمأ قد يأتى أو لا يأتى
قلت لقد ذهبوا لسبيلٍ
لا حول لهم فيه
ومادام الواحد منهم يخشى أن يظمأ
من قبل الظمأ
فما عاد يطمئنهم جمعُهمو من خوفٍ
ولسوف يصيرون إلى الوحشة
يلقون إليها بأياديهم طوعًا
والوحشة من جنس الموتِ
وإن كنت تراها تتوالد حولكَ
فهى بذلك تملك وتسودُ
ستسألنى : هل ثمّةَ موتٌ يتوالدُ

فأجيبك : ذا شأنٌ . الله به أعلمُ
لكنّ الوحشة موتٌ يتوالدُ
وإذا هى – فى وقتٍ – لَقِيَتْنى
أنسانى وقت لقاها كل الأوقاتِ
أصيخُ السَّمْعَ
فلا ألقى إلا صمتًا
يبتلع جميع الأصواتِ
أرى كل الأوجه تتشابهُ
تتماثل فى سمعى كل النبراتِ
أسائل نفسى : هل حقًا أسمع وأرى
أم أنى قد صرت إلى قلب فراغٍ
قد مُحِيَتْ منه تفاصيل الموجوداتِ
وإن كنت وصلتُ إلى المحوِ
فكيف سأتدبر أمرى؟
إن المحو إذا ما كان
فلن يغلبه شئٌ
إلا قلبٌ
لايستنكف أن يعرى قدام حقيقته

وحقيقة قلبى هى غربته

وسط أناس

كل منهم يتخبط فى غربته

* * *

[مرَّةً كنت فى وسط أهلى

إذا بى تداهمنى وحشةٌ

لم أكن أستبين ملامحها

غير أنى من فرط قهرى

جعلت أصيح بها :

(وأنا صامتٌ،

أتكتُمُ ما صابنى حَذَرَ القوم)

أنت الذى بدأ الجفْوَ

دونكِ ما شِئْتِه

عَمِّقى غربتى عن مداراتهم

عَمِّقيها

ولو كانت العين بالعين حقًا

فكيف سأقتص مِمَّنْ مدائنُهم غُلِّقتْ

دون بوْحى ؟

وكيف سأقتصُّ منكِ

وأنت حَجَبْتِ الحبيبَ

الذى كنت أرجو لقاهُ

فليس سواه الذى سيطبِّبُ جُرْحى ؟]

* * *

مِنْ حلَكِ الوحشة

يأتينى صوتٌ فيطمئننى :

ستجئ إلى جرحك

- فى يوم ما -

تسعى من أقصى الحلم

محمَّلةً بالبشرَى

ومطيَّبةً بحنين لاينفد

ستجيئكَ ، فافْرحْ

واستبشرْ بالبُرْءِ على يدها

هى مَنْ قرأت فاتحة الماءِ

على جسد الحُلْمِ المحمومِ
فعُوفيَ
ومشى من ساعته
هى تملك أسرار الرُّقية،
إنْ شرعت تتلوها
لاحت فى الأفق بشائر
لمدائن لايظمأ ساكنها أبداً

* * *

(.. كأنى ارتويتُ
كأنى ارتويتُ
فحمدا لمن أطلق الحلمَ
يعبر بى فوق هذى المنافي
كأن هو يُسرج لى صهوةً
ويسخرها لى ذلولاً
وما قبل ذلك كنت من الراكبيْن

* * *

خطوةً لو خطوتُ

سأعبر هذى الجراح

وأبرأ من دم هذى المدينة

هذى التى لاتزال تحملنى ثأرها

وتُضَيِّقُ صدرى ،

تُضَيِّقُ ،

حتى اختنقتُ

رأيت البيوت التى تتلاصق كالسدِّ

حيطانها العاليات رمتنى بعجزى

فَتُهْتُ

كأنى بصحراء آخرها جبلٌ عاقدٌ وجهَهُ

سوف يهزم هذا العبوس اشتياقك

أنت الذى كنت تشتاق سهلاً

ونخلا على ضفةِ النيل

هل ، يا ترى ، فى بلادك من لايزال يفكر

فى النيل أو فى النخيل ؟ !

* * *

أدخل فى حلمٍ
موسومٍ بحفيفٍ وظلالٍ
فإذا نخل يتلبَّسنى :
ما هذا النخل ؟!
إن كان مكانا
فلماذا لا تسكنه الطيرُ
وإن كان زمانا
فلماذا لا يثبته التقويمُ
وإن كان النخل من الشجر
لماذا لا يعطينا ظلاً ؟!
حقا .. ما هذا النخل ؟ !

* * *

أسألُ ، لكنى لا أجهلُ
أنّى من هذا النخلْ
سنواتٌ مرّتْ فاندثرتْ أصواتٌ
ووجوهٌ
لكنى أتذكر عمّتِيَ النخلة،

كم كانت واثقةً

عمتى النخلة كانت عاشقةً

تتوجع من فرط الوحدةِ

لكنْ لا تشكو

بل تعلو باسقةً سامقةً

مترفِّعةً عن كل الأوجاعِ

أيا عمتى النخلةُ

بالله عليكِ أجيبينى :

ها أنتِ ترينَ حبيبى يجفونى

فلماذا جفوته طالت ؟

ولماذا يتنكر لسنينٍ

مفعمةٍ بهوانا

ودمانا

وتفاصيل حكايانا

وكأن كانت لحظة سُكْرٍ ،

والسَّكْرةُ زالتْ

عمّتىَ النخلة ما ردّتْ

لكنّ بلاغة سكتتها قالت :

أنت الهارب منى ،

فلماذا تأتينى ؟ :

قلت : استَعرَ القتلُ

فجئت ألوذ بخوفكِ

يا عمتى النخلة لا تُخزينى

قالت - وهى تعاتبنى -

أنتَ تنكَّبْتَ عن السيرِ

بلا داءٍ فى منكبكَ -

لماذا ؟ !

قلت لها :

(وأنا مازلت أحدثها

حتى لو كانت لا تسمعنى)

أنت تجورينَ

ولو أنْصَفْتِ

لقلتِ الحقَّ ،

الحقُّ هو أنَّكِ أخلفت مواثيقى

لو أنك - حقا - كنت العشقَ

لأدركت حقيقة أحوالى

وغفرتِ مروقى .

ماذا تنتظر من النيل ؟ !

ترفضنى عتبات نهارٍ
تنتبه إلى أنى مختلفٌ
فتخبِّىءُ عنى سُدَّتها
لكنى لا أرجع عنها
وكأنى مسكونٌ بغوايتها
لا أدرى ما آخرة عنادك
ماداموا قد رفضوكَ
فأين حميَّتُكَ ؟
لمـــاذا لاتعلن صرختك مُدَوِّيَةْ ؟ !
ما كان صراخك من قبلُ
سوى همسٍ وأنينٍ
يتردد فى الوادى
وهمو سمعوه فَرَاقَ لهم
حتى كتبوه على الأحجار
وراحوا يلتقطون إلى جانبه
الصور التذكارية .

* * *

هم كانوا فى شأنٍ

وأنا فى شأنٍ

من مِنا كان على حقٌ

أسأل نفسى منذ الأزل

ولا أدرى

بل لايدرى أحدٌ

فى أيام تتقلّبُ

وتغير جلدتها كل صباحٍ

فَإِذنْ ، لا فيصلَ فى ذلك إلا النيلُ

لأن هو ماء الأزل

ولو كان لأحد حقٌ أعطاه

ولكنى .. لا أعرف – بعدُ –

إذا ما كان سينصفنى

كم كنت أصيح به

أستصرخ فيه تدفُّقَهُ

والشطآنَ

أقول ، أيا نيل أَجِزْنى

يا نيل ألا تسمعنى ..

يا أزل المـــاء

ترفّقْ بالظمآى

إنّا نشهد أنك إن جئت

انصرف الموتْ

وأنك إن كنتَ

انهزمت كل شياطين الفرقةِ

فلماذا لا تجعلنى من مائك

بى توْقٌ أن أصبح منكَ

فأخرجْنى من أحوال الناس

وأدخلنى فى حالكْ

* * *

أحيانًا كنت أفيق من الحلم

فأنكره

أسأل نفسى :

ماذا تنتظر من النيل

أم أنك مسحور بالمـــاء

ومسكونٌ بالأسلاف
إلى هذا الحد ؟!

* * *

كم تمنيت أن ألتقى – ذات صحوٍ – بحلمى
وأن أشهد النيلَ
إذ يتصدر مجلسه
والمريدون من كل فجٍّ
يجيئونَ
يلتمسون بحضرته بعض أسراره
إنه أزل المـــاء
للحاضرين وللغائبين
ولو يتحقق حلمى وأشهد مجلسه
عند ذا سيعود له صوته
ويكلمنى ،
هذه منيتى :
أن أكون الجليسَ
الذى اختاره أزل المـــاء

حتى يحدِّث عنه
سأجرؤ – عندئذٍ – وأحاسبهم
فهمو جردوا النهر من حلمه
جعلوه مجرد مخزن ماءْ
(وأقسم : سوف أحاسبهم
سوف أفعل ذلك
حتى ولو بعد عمرٍ طويل
سأفعله
عندما ألتقى – ذات صحوٍ بحلمى)

* * *

ما كان المـــاء يحدِّثنى
لكنى كنت كمن يحلمُ
ويقول له :
ستكاشفنى يا نهرُ
الآن
بحق الظمأ تكاشفنى
فأنا – من زمنٍ – أتلمس أسرا رك

وأراها تبرق من تحت لثامك

لكنك لاتكشفُ لى وجهكَ

وتظل تراوغنى

تمنح أسرارك للمدنِ وللأشجار

وللأضياف

وللغرباء

وتمنعها عنى

يا نيلُ : أنا استأذنت الخوفَ

وجئتكَ

فبحقِّ الخوفِ الآن تكاشفنى ..

من نبعكَ لمصبِّكَ ،

وأنا مرهون بمسارك

أحوالى من نبْتِك ،

أفقى محدود بمداركَ

يا نيل أنا من نسلك

فلماذا ترفضنى ؟ !

ما كان النهر يحدثنى

لكنى كنت كمن يحلمُ

ويقول :

لقد تعبت روحى وهى تلاحقك

لمـــاذا لا تنزل عن عرشك وتكلمنى

لن يُنْقص هذا من قدرِك

يا نيل أنا أعرف قدرَكَ

وأُجلُّكَ

وأُحلُّكِ فى القلب مكانا

ما كان ليشغله أحد

من قبلك أو من بعدك

يا نيلُ .. أنا أعرف أنْ ماؤك

أسمى من كل المـــاءِ

ولكنى لا أعرف – بعد –

لمـــاذا حين يروِّينى

يشعلنى !

لم يحنْ - بعدُ - وقت التجلى

(١)

علانى سحابٌ

له شكل وجهكِ

قلت : المعاد أتى

وركضت مع الراكضينَ ،

ولكنما الغيث أبطأ دهرًا

- طويلا مريرا -

إلى أنْ تصايحت الناسُ

رُحماكِ بالظامئينَ

لقد جُهدوا

وعيونهمو لم تزل بالسماء معلقةً

وهمو يرتجون

ألا فاعلمى أنهم ، بعد حينٍ

إذا ألفوا طعم هذا الظما

واستكانوا له

سوف ينسون وجهك

مهما أذكّرهم بملامحه

سوف لايذكرونْ

(٢)

سألتك بالله يانيلُ
إلا تجلَّيْتَ
ياطول ما قد تخفَّيْتَ
بل قد تَخِذْتَ حجابا من المـــاءِ
لا المـــاء أنتَ
ولا من حجابٍ سيسْتُرك الدهرَ
عن أعين العاشقين .

(٣)

يُسأل النيل عما جرى
فاسألوهُ ،
أنا أتقلَّب فى ظمئى
بينما فَرُتَ المـــاء للشاربين
هو النيلُ
كان يسوّغهُ وهو يسقيه للواردين
فإن صدورا عنه حنُّوا

ولم يلبثوا أن يكروا له راجعين

وإنى حننتُ .

فعدتُ

ولكننى لم أجد منه

غير الذى يجد العابرون .

(٤)

إلى أين صرنا ؟ !

أراك كما أنت

فى النخل أو فى عيون الصبايا

وفيما تسجله صور السائحين

وأما أنا

فلقد صِرتُ خارج كل الجهاتِ

ونْهبًا لأهون ريحٍ

إذا ما تهبُّ يرفرف قلبى

كأنى تعلّقتُ وسط الفضاء

دوارٌ تخطّفنَى فانخطفتُ

تناثرت الروح منى شتاتًا

فلم أدر كيف ألَملِمُ أشلاء ذكرى
ظللت أجاهد طيلة عمرى لكيلا تضيع
إلى أن تيقَّنْتُ أن هى ضاعت
وإن الضياعَ يقينُ الضياع
(وأى فتىً قد أضاعوا)
تبيَّن لى - الآن - أنى أنتهيتُ
إلى موقفٍ بَيْنَ بَيْنَ
فلا أنا أهبط
أو أنا أرقى
وليس لقلبى به مستقرٌ
فكيف يَقَرُّ بحال
إذا كانت الحال ليست من الحال حقا
إذا هو حلّ بها
صار لاشىء يمُسِكُهُ
راح ينسى مواعيده
ووجوه - الأحبة
يحتار من أين يبدأ
إن ابتداء الخطى
- مثلما أنت تعرفُ -

يُنْبِى بآخرها
هذه وِقفةٌ قد تطول
وقد لاتطولُ
ولكنها - فى النهاية - حالك
وهى التى كل ما تملك الآن
فى زمنٍ لم تعد فيه معجزةٌ
غير هذا الفضاء اللعين .

(٥)

يقول لى النيلُ :
لمــاَّ يَحِنْ - بعد - وقت التجلى
فأدركت أنى سأبقى طويلا
وحالى هى الحال
إلا إذا شاء أن يُعتق الروح
من أسْرِ هذا الدوار
ويطلق هذا السجين .

جمر الوقت

(١)

يفرح قلبى لبدايات الأشياءِ
ويتهلَّلُ إن لاحتّ فى البعد بشائرها
توعده وتمينِّه بحالٍ
هى غير الحال
فلو أنى أعرف أين مكامنها
لبذلت الروح لها
تتعهد نَبتَتَها
لاتَعْوَجُّ ولاتفسد
(من تدبير الفاعل
أو من تأثير الأحوال الجوية)
بل تنبت فى أرضى
تنمو من نيلى
تكبر لا يغذوها إلا جوهرها
لاشك بأن هنا وهنالك بعض براعمها
وأنا تتملكنى النشوة من لمس براعمها
نشوةُ مَنْ مَسَّ
- على شوقٍ - جناتٍ لم تنبت بعد

ومن يقف على عتب زمان يرجوه
هناك سيكتمل تحققه
(أو يكتمل تخفيه)
هنا لك شىء لم يبدأ بعدُ
إليه أنا أهفو
فأنام وأصحو
وأنا أترقب موعده
ياليت الموعد لايتأخر
عن وقت تمام الشوق

(٢)

بالله عليكم
كيف أُفرِّجُ عن حلم
محتدمٍ بالشبق
وممسوسٍ بالنُّسَكِ
ولايتحقق إلا فى الموتِ ؟!
وبالله عليك
إذا ماكنت ستنتصف لقلبى

فلماذا لا تأتى وتُعَجِّل

وخصوصا فى هذى الأيام المهزومة سلفاً

أترى يمتد بى العمرُ

إلى أن ينتصر حنينى للحلم

وتتجلى قدّامى الكلمات مُحَقَّقَةً

فأجاهر بمعانيها

أكتبها فى المتْن موثَّقةً

بدلالات يجتمع عليها كل الناسِ

أقول اللهم لك الحمدُ

لأنهمو - رغم تناحرهم -

قد جمعوا فى الآخر كلمتهم

سيحقُّ لقلبى - عندئذٍ -

أن يعلن مكنون خوافيه

ويسقيهم مما يشرب

خمرا ما فيها غولٌ

(أو فيها)

لكنّ لها أَخْذًا

ومتى تتملكنا ندرك أنّ أعنّتنا فى يدها

وإذا تتعاقب أكؤسها

تتعاظم سطوتها

توغل بى فى حالٍ

تدنينى من حالى

وتبصّرنى بمآ لى

لأميّز حلمى من بين الأضغاث

(٣)

أوعدنى ثم مضى

فقعدت أظن بألّنْ يخلف موعده

أمضيت العمر على جمر سؤالٍ

فى كل صباح يشغلنى

وطوال الليل يؤرقنى :

أنجو أم أنى لا أنجو ؟!

يا من قيّدنى للحلم وراحَ

ومُذْ قيّدنى آليت على نفسى

ألا تتململ فى القيد

لأن الفجر الآتى آتٍ بالنور

وبالحور

وبالدر المنثور

أقول سأكمن بين الظُّلمة والظُّلمة
حتى إن لاح خرجت له
أكشف صدرى
لا يخجلنى أن تتكشَّف فيه هناتُ
(يحسبها الناس من العوراتِ
فأجهد أن تَخْفى عن أعينهم)
لا أخشى أن أخرج عريانا
أو خَلَقًا ثوبى
لن يأتي شئٌ منه
كما يأتى من غدر غوائلهم
سيجئ كما أوعدنى
وإذا ما أبطأ بعض الوقت
فلا تثريبَ
لأن الوقت له
مهما هو يبطئ لا أنكص
بل أصبر وأعلل نفسى
أتذكر كلمات كان أسرًّ إلى بها
أو أستخرجُ تذكارات أودَعَنيها
فأقلب قلبى بين معانيها

حتى أستحضره قدامى

فكذلك سيجئ

وألقاهُ

وأصحبه

وأماشيه بقية أيامى

أنجو أو أنى لا أنجو

لا أهتمَّ

فقد صِرْتُ إلى جنة أحوالى

ما عادت كل التفصيلات تؤرقنى

ووداعا يا جمر الوقت

ناسك يتهجّدُ فى كهف حلم قديم

(١)

لم يعد أحدٌ يسمع النهر
من بعدما انفضَّ موكبه الملكىُّ
ولم يبق من حوله
غير بعض عشيرته الأقربين
أولاء الذين إذا نُبِّئُوا بالرحيل
سيشغلهم جمع حاجاتهم
بئس ما يجمعون
فما كان ذلك ينفعه
أو يخفف عنه
سيرتحلون – جميعا – إلى الصمت
وهو يرفرف فى وسطهم كالذبيح
يقلِّب فى الجمع أبصارَهُ
يَنْشُدُ الغوث فى أوجه العابرين
ولكنه إذ تضيق الدوائر
يرحل مستوحشًا
رغم كل المحيطينَ
حتى إذا ما توغَّل فى بُعْدِهِ
جاءت الريح تحمل أصداء أنَّاتِهِ :

كان يرحل وهو يرتل أغنية للوداع

يلحنٍ شبيهٍ بلحن الجنازة

هذى جنازة مَنْ ؟؛

لست أدرى

فما كان نعشٌ

وإن كنتُ بين صفوف المُعَزِّينَ

كانوا يقولون : فلتذكروا للأنام محاسنه

واذكروا أن أولها كان فرط الحياءِ

فكم كان يحذر أن تلحظ الناس ما هو فيهِ

أقول : ولكننى قد سمعت الأنينَ

يقولون : هذا لأنّ الرياح التى لم تكن تحفظ السرَّ

قد فَضَحَتْهُ

فصارت مواجعه فوق كل لسانٍ

وصاروا يقصون عنه الحكايات شتًّى

فقلت : نعم

وهمو فى حكاياتهم يصدقون ويختلقون

أنا كنت أسمع ذا فى مجالسهم

بين حينٍ وحين .

(٢)

كان يسألنى قبل وقت الرحيل

يقول : لماذا تغيَّرَ ما بين قومى وبينى ؟؛

يسائلنى وأنا لا أجيبُ

(لو آنى أجبت

لقطّع ما بيننا ومضى)

راح يسألنى ويقولُ :

أألوجهم أقفرتْ أم عيونى ؟

ولم أدر كيف أجبت تساؤله ذات يومٍ

فقلت : وجوههمو وعيونك ؛

هذا الذى قلتُ

أقسم ما كنت أقسو

فقد كنت في موقفٍ

أىّ شخص سينزله

سيقول الذى قلتُ

لكنه لم يكد يتبيَّن ما قلتُ حتى تغيَّر

قال : أراك تُغالى

وما كنت أعهد فيك التجنِّى .. خصوصا علَّى ،

وراح يقلِّب عينيه فىَّ ،

كأنْ هو يبحث عنى
فقلت : حنانَيْكَ .. ما كنت أقصدُ
لكن هذى النهاية كانت مفاجئة للجميعِ
فقال : حسبتك من صفوة العارفين
لأن البداية تحمل دوما ملامح فصل الختامِ
فلا تتحدث معى عن مفاجأةٍ
قلت : أعلمُ ،
لكننى صرت أشعر أنى خُدعتُ
فكم من سنينٍ وأنت تقول اصبروا
انما هى قادمةٌ ذات يوم قريبٍ
فهل كنت تعوف موعدها
أم ترى كنت تجهله وتماطلنى
مثلما هى تمطُلُنى حق عشقى
تؤخر مقدمها وهى تعلم أنْ فاض بى
قال : إنى لأعجب منك
كأنك لست من العاشقين
ألم تر أنّ الذى أنت فيه هو الحلمُ
والحلمُ مِن طبعهِ أن يباعد بين سحابته والعِطاشَ
يروِّيك .. ثم تظل من الظامئينَ ؟!

فقلت : بلى .. والمسافات فى الحلم وهمٌ
تسافر عمرا به ، ، ثم لا تستبين مكانك
بل يستوى فى الوجود لديك
إذا كان يُقصيكَ أو كان يُدنيك
قال : فهل غيَّر الحلم من طبعه
قلت : لا
لم يزل مثلما نحن نعهده
كلما لاح راح
وإذ يتراءى لنا يتناءى
ولكنه قد تناءى طويلا إلى أن تعالى
فقال : وها هو ذا قد تعالى
إلى أن تقدَّس فى أعين الحالمين
فأىُّ مشاهده سوف تنكرُ
قلت له : قد تماديتَ ، لستُ من المنكرين
وإنى أصدِّقُهُ كله ،
غير أنى مازلت أشعر أنى خُدعتُ .
فقال : أما زلت تشتاقها ؟!
إن من تَيَّمتْكَ انقضى عهدها
قلت : بل هى غابت ولمَّا تَغِبْ

لم تزل – بعدُ – ماثلةً للعيون

فقال : تكذِّبني ؟!

قلت : لا .. غير أني خُدعتُ

فقام يحدّج وجهي بلَمْحٍ له باصرٍ ويقولُ :

أكنتُ أنا من يخادعُ ؟!

قلتُ : تكلّفني في جوابك مالا أطيقُ فَهَوِّنْ عليَّ

فقال : افترض أنني اخترت هاويةً ورميتك فيها

فهل كنت أختارها عامدًا ؟!

إن كل الذي كان ، لم يكُ قفرًا يَبابًا

ولا كان ما نحن صرنا إليه خرابًا

تطلعت حولي

فإذ نحن في وسط ألف خرابٍ

فقلت له : لا تُماري

لقد كنت تعرف من أول الأمر أنّ النهاية قادمةٌ

ولذلك رحت تردد لحن الوداع الحزين

فقال : فُطِرْتُ عليه

وما كنتُ أخلو إلى النفسِ

إلا وألفيْتُها تترنّم باللحنِ .

قلت له : إنما هو شأنك

أنت الذى اخترته وحده دون كل اللحونِ
فقال : كذا هو شأنك
لا تنس أنك صدَّقْتَ ثم تَبِعْتَ ،
أنا خدعتنى دمائى .. وأنت ؟؛
فقلت له : وأنا خدعتنى دمائى
برغم الذى حفظتْهُ العروق طوال السنين
(٣)
كلما صرتُ أخلو لنفسى
أكاد أُجَنُّ
فمن غاب عنى .
تفاصيلُهُ ، بل حميم تفاصيلهِ ، حاضراتٌ
فكيف أغالب هذا الحنين
أيهجرنى وأنا من نذرت له جُلَّ عمرى
وأخشعت قلبى له
مثلما ناسكٍ يتهجد
فى كهف حلم له من قديمٍ
ذَهِلْتُ عن العالمين
عن الصوت والصمتِ
عن كل زادٍ

وعن كل وقتٍ
يقولون : حلمٌ
أقول لهم : فليكنْ
إنما الروح تدرك فيه اليقين
وإنَ الذى فى يقينى :
هو آنّ البشارة قادمةٌ
والذى يبتغى أن يراها
فسوف يراها
وإن هو غُمّ عليه
اهتدى ببصيرته
إنّ للروح أعينها
والاشارات أكثر مِن أن تُكذَّبَ
لكنهم يُظهرون خلاف الذى يبطنونَ
كلامٌ يقولونه وكلامٌ يُسِرّونَ
حتى تحيَّرْتُ ،
أنزلتُ قلبى مقامَ التوجُّس
فهو يصدّقهم ويكذّبهم
وأنا فى ضميرى أكذب فى الحالتينِ
ترى ما الذى فى سرائرهم يكتمونَ

وماذا لو أنهمو اطلعونى عليه

أقول لنفسى : لو آنى عرفتُ فلن أفسد الحفلَ

لكننى كنت أدرك زيف مقالى

فما كنت مِمَّنْ إلى مثله يأمنون

من البدء كان الخلافْ

فأمسك عليك اعتقادكَ ،

يا ناسكا يتهجّدُ

- ما زال -

فى كهف حلم قديم .

جمر الوقت

كُتبت قصائد هذا الديوان :

فى القاهرة من ١٩٩٨ إلى منتصف ٢٠٠٠ للميلاد .

صدر للشاعر :

* فصول من كتاب الحب

الهيئة المصرية العامة للكتاب - القاهرة - ١٩٩٠ م

* تغيرت البلاد ومن عليها .

دار سعاد الصباح - القاهرة ١٩٩٢ م

* ظمأ الروح وسقياها

الهيئة المصرية العامة للكتاب - القاهرة - ١٩٩٤ م

* هذا ظل الأرض على قلبى

الهيئة العامة لقصور الثقافة - القاهرة - ١٩٩٩ م

محتويات الديوان

طبع بالهيئة العامة لشئون المطابع الأميرية

رقم الإيداع ١٥٠١٨ / ٢٠٠٢



لا تزال الحراب التى تتكاثر فى الصحو

يُبردُها الليل

ثم الحراب التى تتكاثر فى الليل

يُبردُها الصحو،

لو ألف عمر أمامك لن تستريح.

وهذى فلول الأناشيد

لمّا تزل تتناسل أبواقها فى الفصول.

يورثها الناس للناس،

عبر السلالات،

هذى التى لم تزل تتكاثر

وهى تكابد سر الأفول.

المجلس الأعلى للثقافة